

( ٨ )

سلمان (الناقد الحضاري)



## سلمان (الناقد الحضاري):

### مصطلح القرون الوسطى المظلمة

لا ينطبق على حضارتنا العربية الإسلامية

قرأنا في مقدمة الكتاب: (وبمقتضى سبب أن عقيدة التوحيد هي نبع الإبداع في الحضارة العربية الإسلامية: يرفض سلمان بن عبدالعزيز بقوة (إسقاط مصطلح القرون الوسطى المظلمة) على التاريخ العربي الإسلامي).

وفي هامش من هوامش تلك المقدمة وردت العبارة الآتية: «للأهمية القصوى - المعرفية التاريخية التوثيقية الحضارية - لهذه القضية (قضية مصطلح القرون الوسطى المظلمة) التي التبتت على كثير من العرب والمسلمين وغيرهم عقدنا لها فصلاً خاصاً مستقلاً استناداً إلى المبادأة والفكرة الأصلية عند سلمان بن عبدالعزيز».

وها هو الفصل الخاص المستقل.

وهو فصل مرتبط على مبادأة فكرية تاريخية ابتدأها سلمان منذ مدة طويلة.. ثم أخذ يطرحها ويؤكدها كلما لاحت مناسبة، أو ردد بعضهم - في غير علم ولا توثيق - مصطلح القرون الوسطى المظلمة، وذهب يسقطه على التاريخ العربي الإسلامي.

وموجز فكرته الأصلية هو: «أنه قد شاع على نطاق واسع ليس بين العوام وإنما بين شرائح واسعة من المهتمين بالثقافة والفكر والإعلام والتاريخ والحضارة.. شاع بين هؤلاء مقولة (القرون الوسطى المظلمة)، ولا بأس في شيوع مثل هذه المقولات والكلمات في البيئة التي نشأت فيها، فكل بيئة وحضارة وتاريخ كلمات تناسبه من حيث إنها نبتت فيه واستمدت من واقعه، وعبرت عن ذلك الواقع سواء أكان حسناً أو سيئاً، ولكن الخطأ الجسيم هنا أن كلمة القرون الوسطى المظلمة حاول بعضهم - في ديار العرب والمسلمين - سحبها وتطبيقها على الحضارة العربية الإسلامية، فيقولون مثلاً: أتريدون الرجوع بنا إلى القرون الوسطى المظلمة؟ وهذا خطأ فادح مصدره الجهل بتاريخ الحضارتين الإسلامية والغربية؛ لأن القرون الوسطى المظلمة في أوروبا يقابلها - بالضبط - القرون السبعة الأولى للحضارة العربية الإسلامية، وهي قرون أو عصور كانت (مركزاً عالمياً) زمانياً ومكانياً للتنوير العقلي والمعرفي والثقافي والاجتماعي والعمراني.

■ والحق أنها ليست مجرد فكرة ذهنية أعمية، وإنما هي فكرة (موثقة) تاريخياً وفق منهج الدراسات التاريخية المقارنة من الناحيتين الزمنية والموضوعية.

لأجل ذلك، فإن الفصل كله (توثيق مكثف) لفكرة سلمان المفعمة بالتنبه التاريخي، واليقظة الحضارية، والفتنة العربية الإسلامية.

سواء أصحّ قول بول كندي في كتابه... (نشوء القوى العظمى وسقوطها) بأن أغلب الدارسين قد اتقفوا على أن الحد الفاصل بين العصرين: الحديث وما قبله - أي: القرون الوسطى - هو عام ١٥٠٠م، أم صحّ قول رونالد سترومبيرج في كتابه: (تاريخ الفكر الأوربي الحديث) بأن هناك إجماعاً على أن الفكر الأوربي دخل عصره الحديث في القرن السابع عشر الميلادي، سواء أصحّ هذا القول أم ذلك فإن الحقيقة الموضوعية هي - في الحالين - أن أوربا كانت قبل هذين التاريخين بلا نهضة (تنويرية) كالتى عرفت بها من بعد.

وما قبل النهضة هو الحقب التى وصفت فى الدراسات التاريخية والحضارية - بـ(القرون الوسطى) أو (العصور الوسطى المظلمة).

(فما هى القرون الوسطى؟)

هى الحقبة التى بدأت بأواسط الألفية الأولى للميلاد أي: الحقبة الممتدة من سقوط الدولة الرومانية إلى عصر النهضة الحديثة فى أوربا، وهى حقبة تبلغ عشرة قرون تقريباً.

فقد سقطت الدولة الرومانية في القرن الخامس للميلاد.. فلم يكد ينتصف القرن الخامس حتى تمزقت الإمبراطورية الرومانية شر ممزق، حيث تفككت معظم أجزائها.. وإذا أخذ بالرأي القائل بأن العصر الحديث في أوروبا قد بدأ في القرن الخامس عشر فإن المدى الفاصل بين سقوط الامبراطورية الرومانية وبين عصر النهضة يبلغ عشرة قرون.

صحيح أنه بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الكبرى، كانت هناك محاولات لاسترداد القوة والعافية الغربية في شكل ما كقيام الممالك الجرمانية التي حاربت الإمبراطورية الرومانية، وكالدولة البيزنطية، وقيام إمبراطورية جديدة على يد شارلمان. لكن السياق الغالب على الأوضاع الأوربية كان هو التخلف والانحطاط.. ومن أسباب التخلف ومظاهره: التحجر الفكري.. والخلافات الدينية العاصفة.. وسطوة الكنيسة.. والحروب الضروس.. والانحلال الاجتماعي.. واستبداد الإقطاع.. وشيوع أجواء الدسائس والمؤامرات.. وضعف الإنتاج.. وفقدان هدف واضح للحياة.

## وصف عام أو صورة موجزة لأوضاع أوروبا في القرون الوسطى المظلمة

١- يقول (ستانوود كب) - في كتابه: المسلمون في تاريخ الحضارة - : «وعلى سبيل المثال لنتصور عالم القرن السابع الميلادي (يقابل العام الأول الهجري) إذ كان مولد الإسلام، ولنتبين حالة الحضارة الإغريقية الرومانية، لقد توقفت هذه الحضارة القديمة، وأصابها الجمود، وغدت تفتقد الحيوية والانطلاق، ولم يعد هناك نشاط علمي يمارس بأي مركز في أنحاء العالم»<sup>(١)</sup>.

٢- ويقول (أرنولد توينبي) - في كتابه: تاريخ البشرية - : «كاد القرن السابع أن يكون حقبة اضطراب مستمر، فقد كادت فتنة ٦٠٢ ومقتل الإمبراطور موريس أن يلقياً بالإمبراطورية في أحضان الفوضى»<sup>(٢)</sup>.

٣- ويقول (رونالد سترومبرج) - في كتابه: تاريخ الفكر الأوربي الحديث - : «ونحن لا شك نخطئ خطأ فادحاً إذا اعتقدنا أن القرون الوسطى كانت تمثل (عصر الإيمان). فذاك العصر كان مرحلة تاريخية أطلقت خلاله شعوب بربرية

(١) ستانوود كب: المسلمون في تاريخ الحضارة ص ١٠٨.

(٢) ارنولد توينبي: تاريخ البشرية ج٢ ص ٩٦.

طاقاتها الوحشية التي هددت بإسقاط كل نظام، فانسحب الورع لائثاً بالأديرة للحفاظ على بقائه، وتشهد بذلك حاجة تلك الحقبة إلى الإصلاح الديني. فنظام الإقطاع الغليظ نظم الكنيسة أو قيدها، ورافق ذلك تضاؤل البابوية مركزاً وهيبةً، وأخذت الطبقة الدنيا من الشعب تقذف المجتمع بين حين وآخر ببعض أبنائها الذين كانوا يجاهرون دون وجل أو خوف بمعتقدات مخالفة لمعتقدات الكنسية، وغدا رجال الدين المسيحي موضوعاً لسخرية الشعراء وواضعي الأغاني الشعبية. وأمست اللذائذ الحسية والتغني بها أمراً شائعاً ومألوفاً، وكان أبرز الكتاب في ذلك المضمار، ولا سيما قرابة نهاية القرن الثالث عشر هو جان دي مين»<sup>(١)</sup>.

٤- ويقول عبدالفتاح أبو عليه، وإسماعيل ياغي - في كتابهما: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر - : «وبسقوط الدولة الرومانية الغربية، وبانتشار القبائل الجرمانية في أنحاء أوروبا الغربية، عمت حالة من الفوضى والاضطراب عندما انحلت الرابطة التي كانت تجمع معظم أوروبا في دولة واحدة، وأصبحت أوروبا موزعة بين قوى سياسية من أقوام همج، لا عهد لهم بأساليب الحكومات المنظمة، فأهملت الصناعة والتجارة

(١) رونالد سترومبيرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث ص ٣٤.

والزراعة، إلا ما كان يسد الحاجة. واحتمى الضعفاء بزعيم ما يكفل لهم الحماية والدفاع ضد المغيرين عليهم من جيرانهم، مقابل أن يقدموا له خدمة، وبهذا الشكل ظهر النظام الإقطاعي في أوروبا المعروف بـ(نظام العصور الوسطى الأوربية)<sup>(١)</sup>.

٥- ويقول محمد العزب موسى - في كتابه: (حرية الفكر) -:  
«وفي روما أحرقت جميع كتب العقائد القديمة، وفي عام ٦٠٠م دمرت مكتبة روما، وحرّم نهائياً تدريس أي كتاب للأقدمين سواء أكان في الدين أم الفلسفة أم الأدب أم العلم.. ويقول الأسقف كريستوموس الذي عاش في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي: إن أعمال جميع المؤلفين والفلاسفة القدامى قد اختفت من على وجه الأرض.. وأصبح ما نجا من مؤلفات شيشرون وأفلاطون وفرجيل وهوميروس ترقد مهجورة منسية في بطون المخابئ والأقبية. إن أمامها ستة قرون أخرى قبل أن تبعث من مرقدتها على يد العرب المسلمين.»

«إن روجرز بيكون الفيلسوف العالم المخترع الإنجليزي الرائد الكبير للعلم الحديث، عاش مطارداً ومضطهداً،

(١) عبد الفتاح أبو عليّة. وإسماعيل ياغي: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر ص٧.

فأشيع عنه الاشتغال بالسحر، وحرّم في عام ١٢٥٧ من إلقاء محاضراته في جامعة أكسفورد، ثم وضع تحت إشراف بعض الرهبان في باريس، ثم يدان ويلقى به في السجن، ويمكث فيه ١٥ عاماً قبل أن يطلق سراحه وهو في سن الثمانين.

«وهكذا كانت المؤسسة الدينية في القرون الوسطى لا تكتفي باضطهاد مخالفيها في الدين، وإنما كانت تدين البحث العلمي، وتحارب (حرية الفكر)، ووصلت إلى حدّ تحريم الطب، وأدى ذلك إلى تأخر عصر النهضة الأوروبية قرونًا عدة، وامتداد الآلام البشرية طيلة هذه القرون.

«وخطا البابا جريجوري الرابع الخطوة الحاسمة نحو إنشاء (محاكم التفتيش) حين أصدر في عام ١٢٢٣ م أمراً للأساقفة بأن يستخدموا (الاعترافات) التي يدلي بها الناس في مقاومة الهرطقة وسحقها.

«هذه هي محاكم التفتيش التي لم يكن لها مثل في التاريخ، وطوال خمسة قرون انتزعت هذه الآلة الجهنمية مئات الألوف من الأبرياء في جميع أنحاء أوروبا من أسرهم ليلاً لمجرد وشاية كاذبة عن هرطقتهم المزعومة، وقضوا في السجن شهوراً وأعواماً.

«ولم يكن الذين يعذبون في محاكم التفتيش المتهمون وحدهم وإنما يعذب الشهود أيضاً حتى يقروا بكل ما يعرفونه عن الحقيقة!».

«وحتى الموتى لم يكونوا بمنجاة من محاكم التفتيش، ففي حالات كثيرة كانت تجرى محاكمات للموتى الذين غادروا الحياة منذ عشرات السنين، ويتضح أنهم مذنبون، فتحفر قبورهم، وتؤخذ عظامهم وتحرق».

«رافقت محاكم التفتيش في القرون الوسطى ظاهرة أخرى وهي ظهور قبائل جواله من الجواسيس الخصوصيين، معظمهم من الرهبان وصغار القسس، كانوا يختلطون بالناس في المدن والقرى ليتشمّموا أفكارهم وعقائدهم وخلجات أنفسهم، ثم يبالغوا السلطات الكنسية بأسماء من يشكون في حكمتها ورحمتها».

وكانت محاكم التفتيش في إسبانيا أكثر قسوةً وجبروتاً منها في أي مكان آخر، وقد أنشئت هذه المحاكم عام ١٤٨٠ بأمر الملكين: فرديناند وإيزابيلا، وظلت تعمل حتى عام ١٨٣٤، أي: مدة ٣٥٠ عام بلا انقطاع»<sup>(١)</sup>.

(١) محمد العزب موسى: حرية الفكر ص ٥٣-٥٤-٦٨-٦٩.

## صورة عامة للحضارة الإسلامية المتوهجة بالنور في القرون الوسطى الأوروبية

دخلت أوروبا في القرون الوسطى أو العصور المظلمة دخولاً يكاد يكون شاملاً في القرن السادس الميلادي، فكيف كان العالم الإسلامي؟ وكيف كان مسار الحضارة العربية الإسلامية في الحقبة نفسها؟

■ يرسم هذه الصورة العامة للحضارة الإسلامية في القرون الوسطى - بالنسبة إلى أوروبا - عدد من المؤرخين والباحثين الذين وصفوا الحضارة الإسلامية في تلك الحقب وصفاً موضوعياً أميناً:

١- وَصَفُ أرنولد توينبي - في تاريخ البشرية - : «كان لعبقرية محمد أثر كبير في نقل رسالة ربه إلى قومه، وقد كان تاريخ الجزيرة مرتبطاً بذلك.. وفي عصر النبي كانت الشحنة الروحية المتراكمة في الجزيرة العربية على وشك الانطلاق، وجاءت رسالة محمد في الوقت المناسب؛ إذ تلقى هذه الشحنة، فأحسن استعمالها، وذلك برويته النيرة وتصميمه وحكمته<sup>(١)</sup> .

(١) لم تكن رؤية بشرية، وإنما كان الأمر وحيياً يوحى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا...﴾ [الشورى: ٥٢].

وسرعة الفتوح التي تمت على أيدي الدولة الإسلامية تدعو إلى الإعجاب.

ومما حفز النشاط العقلي في المجتمع الإسلامي الحاجة إلى تزويد الإسلام بالأدوات العقلية.

إن تدفق الترجمة من السريانية واليونانية إلى العربية في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) يدل على أنه كان هناك قراء مثقفون نشطون. وتركزت هذه الحركة في بغداد التي أنشئت سنة ٧٦٢م عاصمة للخلافة، وقد أصبحت مدينة عالمية<sup>(١)</sup>.

٢- وصف (هربرت جون ويلز) - في كتابه: موجز تاريخ العالم -:  
«وهكذا حدث أن التجميع والنقد المنظم للحقائق الذي أبداه الأغريق لأول مرة، عاد سيرته الأولى في ثانيا النهضة المدهشة التي نهضها العالم السامي<sup>(٢)</sup>، فالآن دبت الحياة في بذرتي أرسطو ومتحف الإسكندرية اللتين طال العهد على خمودهما وإهمال الناس لهما، وإذا هما تتبتان من

(١) ارنولد توينبي: تاريخ البشرية ج ٢ ص ٨١-١٠٧-١٠٨.

(٢) يطلق بعض الكتاب والمؤرخين الغربيين وصف (السامي) على العرب بحسبانهم ساميين، والوصف صحيح من حيث الأرومة الأولى فـ (سام أبو العرب) كما جاء في الحديث النبوي الذي رواه أحمد والترمذي.

جديد، وتأخذان في الإثمار. لقد تم للعرب في حقول العلوم الرياضية والطبية والطبيعية ضروب كثيرة من التقدم، فنبتت الأرقام الرومانية، وحلت محلها الأرقام العربية التي نستعملها إلى يومنا هذا، واستعملت علامة الصفر لأول مرة. ولا يخفى أن اسم «الجبر» نفسه لفظ عربي، وكذلك كلمة (كيمياء)، ولا شك في أنهم (أي: المسلمون) وفقوا إلى مستنبطات في المعادن والتطبيق الفني كثيرة، ولها قيمة قصوى، فهم الذين عثروا على السبائك والأصباغ والتقطير والألوان والعطور وزجاج العدسات.

وبفضل فلسفتهم عادت الحياة إلى فلسفة القرون الوسطى في كل من فرنسا وإيطاليا والعالم المسيحي»<sup>(١)</sup>.

٣- وصف محمد العزب موسى - في: حرية الفكر - : «في عام ١٨٩١م كان في بغداد مائة مكتبة عامة يستعين بها طلاب العلم بالاستعارة والاطلاع، وبكل مكتبة قسم للترجمة والنسخ، وقاعة كبرى للندوات والمناقشات، وكانت مدينة صغيرة مثل النجف تفخر في القرن العاشر الميلادي بامتلاكها مكتبة تحوي ٤٠ ألف مجلد.

(١) راجع: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر لعبدالفتاح أبو عليّة وإسماعيل ياغي ص ١٢-١٣.

وكانت الكتب تكلف المجتمع العربي الملايين في كل عام. فالمكتبة النظامية في بغداد مثلاً كانت ميزانيتها السنوية مليونين ونصف مليون دينار ذهبي تتفق في شراء الكتب ونسخها وتجليدها وتجديدها.

وفي عام ١٠٠٠ ميلادية نشر ابن النديم فهرسه الذي يقع في عشرة مجلدات تشتمل على أسماء جميع الكتب التي ظهرت بالعربية حتى ذلك الحين سواء في الفلسفة أو الفلك أو الرياضيات أو الطبيعة أو الكيمياء أو الطب»<sup>(١)</sup>.

٤- وصف (جون ديزموند برنال) - في كتابه: العلم في التاريخ -: «صعد الإسلام صعوداً فجائياً، واستطاع المسلمون أن يغلبوا كلاً من الجيشين الروماني والفارسي في خلال خمسة أعوام بعد وفاة النبي، ولم تستطع أي قوة أن تتصدى لهم بعد ذلك لزم من طويل.. وقد امتدت فتوحات الإسلام حتى وصلت في القرن الثامن الميلادي إلى آسيا الوسطى شرقاً وإلى إسبانيا غرباً. ودانت له كل المستعمرات الرومانية في إفريقيا وآسيا باستثناء آسيا الوسطى، كما دانت له كل الإمبراطورية الفارسية الممتدة عبر آسيا الوسطى

(١) محمد العزب موسى: حرية الفكر ص ٩٨-٩٩.

حتى الهند، ومنذ ذلك الوقت أصبح لمعظم هذه الأنحاء ثقافة مشتركة، وديانة مشتركة، ولغة أدبية مشتركة، وظلت لقرون عدة ذات حكومة مشتركة، وتجارة حرة. وقد كفل كل من الدين والحج أن يتنقل الأدباء والشعراء بحرية في كل الأنحاء ما بين المغرب والصين.

وكان الأثر المباشر هو: التنشيط الكبير للثقافة والعلوم.. ولم يحدث تخلف يذكر في الجانب العلماني<sup>(١)</sup>.

أيضاً فمنذ البداية لم يضع الدين الإسلامي قيوداً على الفكر البشري مثلما فعلت الكنيسة.. وقد سعى قادة المسلمين عقب القرن الأول لفتوحاتهم سعياً جاداً للحصول على المعارف اليونانية القديمة وعلى غيرها من الثقافات بقدر ما كان القرآن يسمح به<sup>(٢)</sup>.

(١) يقصد بهذا التعبير: حرية الفكر وسعة دائرة اجتهاده في النظر وابتكار وسائل التجديد والعمل والحركة، وألا يتدخل الدين في التجارب العلمية، ذلك أن مفهوم العلمانية بمعنى فصل الدين عن الدولة لم يعرفه المجتمع المسلم، ولم تأخذ به الدولة المسلمة حيث إنه يتناقض مع منهج الإسلام.

(٢) القرآن يسمح بل يحض على تحصيل المعرفة النافعة من أي مصدر جاءت وإلى أي حقل من حقول العلم انتسبت: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا.....﴾ [البقرة: ٢٩]. والعلوم والمعارف الصحيحة النافعة هي أئمن وأنفع ما في الأرض.

وفي خلال المدة القصيرة من عام ٧٥٤ حتى عام ٨٦١م، في عهد الخلفاء العباسيين: المنصور، وهارون الرشيد، والمأمون بل والخليفة الورع المتوكل، لقيت العلوم تشجيعاً لم تشهد مثله منذ أيام متحف الإسكندرية، ولم يكن الخلفاء الأميون وصغار الأمراء الذين خلفوهم في إسبانيا ومراكش أقل اهتماماً.

وبفضل تلك الرعاية من قبل الحكومات والأثرياء تمكن الأطباء والفلكيون من مباشرة تجاربهم وتسجيل مشاهداتهم كما أنها كفلت حمايتهم من المعارضة القوية التي كان المتعصبون الدينيون يبذلونها<sup>(١)</sup>.

٥- وَصَفُ ستانورد كب - في كتابه: المسلمون في تاريخ الحضارة - : «في قصة الإنسان، تكوّن الحقبة العربية الإسلامية فصلاً كبير الأهمية؛ فقد كانت واحدة من ثلاثة عصور علمية كبرى في العالم، فهي تتوسط الطريق لتقييم حلقة تصل بين (جنين العلم) عند الإغريق وبين (مولد العلم والتكنولوجيا) في العصر الحديث.

وأبدى العرب شعوراً عملياً في بعثهم لعلوم العالم التي أصابها النسيان أو الإهمال وتوسعهم فيها. وكان المأمون

(١) جون برنال: العلم في التاريخ، ج ١ ص ٢٩٦-٢٩٩.

مثالاً دقيقاً لهذه الروح العملية. فإن حماسه للعلم المجرد لم يقلل من عنايته بصالح الفلاح البسيط، الرجل الذي يمسك بالفأس، وعلى أكتافه دائماً تقوم أساسات أعباء الحضارة. فلقد كان على وعي كامل بأهمية التربة وفلاحتها كمورد لدخل الدولة، وكوسيلة لرخاء الشعب وسعادته على السواء.

وتحقق أبرز تقدم للأندلس الإسلامية تحت حكم عبدالرحمن الناصر وخليفته الحكم الثاني؛ هذان الخليفان الموهوبان اللذان حكما من عام ٢٩٩ إلى ٣٦٥ هـ ٩١٢-٩٧٦ م. وتشير هذه الحقبة إلى ازدهار الأندلس في الثراء والثقافة والسعادة بصورة رائعة»<sup>(١)</sup>.

(١) ستانوود كب: المسلمون في تاريخ الحضارة ص ٤٣-٦٤.

## المقارنات: الموضوعية والزمنية

### المقارنة الموضوعية

- ويقصد بالمقارنة الموضوعية: أن يُقارن واقع العصور الوسطى في أوروبا بواقع الحضارة العربية الإسلامية.

١- يقول مؤلف كتاب - العلم في التاريخ: تحت عنوان: عصور الظلام في أوروبا الغربية - : «بينما كان هناك تطور ثقافي لامع يجري في الإمبراطوريات الشرقية، وفي بلاد الإسلام كانت معظم أوروبا لا تزال تعاني من حالة الارتباك التي خلفها انهيار الإمبراطورية الرومانية والحضارات البربرية، وخيم الانحلال على المدن في كل مكان في الحقبة ما بين القرن الخامس والقرن التاسع. وتلاشت هذه المدن تماماً في بريطانيا، حيث كانت مدناً دخيلة. أما في إيطاليا، فقد بقيت المدن؛ إذ كان لها من العمر ألف سنة، ولكنها أصبحت نصف مدمرة أو مهجورة»<sup>(١)</sup>.

٢- ويقول مؤلف كتاب حرية الفكر: «وقد عملت الدولة الإسلامية على التوسع في نشر العلم ابتداء من سن الطفولة. وفي الوقت الذي كان فيه ملوك وأمراء وأشرف أوروبا يجهلون القراءة

(١) جون برنال: العلم في التاريخ ج ١ ص ٣١٣.

والكتابة، كان ملايين الأطفال يترددون على الكتايب المنتشرة بوفرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي»<sup>(١)</sup>.

٣- ويقول مؤلف كتاب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: جوزيف نسيم يوسف: «أفاقت أوروبا من وحشة العصور المظلمة في أواخر القرن الحادي عشر لتجد نفسها أمام حضارة إسلامية شامخة البناء»<sup>(٢)</sup>.

٤- ويقول مؤلف كتاب: المسلمون في تاريخ الحضارة، تحت عنوان: تاريخ الظلمات: «وقد ازدهر العلم والتعليم في ظل النفوذ الإسلامي منذ أن تبوأ بغداد مكان الصدارة والقوة في منتصف القرن الثامن الميلادي.. وما من من جزء آخر من العالم المعاصر وقتذاك تميز بمثل هذه الحيوية، فإن أنوار الحضارة الإغريقية والرومانية كانت قد انطفأت وأحذقت بأوروبا العصور المظلمة.

إن القرن السابع الميلادي الذي شهد قيام الإسلام قد شهد أيضاً أوروبا وهي تدخل العصور المظلمة.

(١) محمد العزب موسى: حرية الفكر ص ٩٩.

(٢) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٣٧٩.

وفي خلال حقبة تدهور العلم الإغريقي، جاءت (حركة العرب) إلى الأمام ليكونوا طلائع الحضارة. وهكذا قيض لهذه الأمة الفطرية أن تغلب فوراً على نصف العالم المعروف وقتذاك، وأن تحيي ما درس من حضارة الإغريق وعلومهم، وأن تنقل إلى أوروبا النائمة المعارف والمهارات.

وجاء أقصى مدّ للحضارة الإسلامية بين سنتي ٨٠٠-١١٠٠ م - ١٨٤-٤٩٣ هـ مقارنة بأدنى جزر للحضارة الأوربية، فبينما كان المسلمون ينعمون بمستويات عامة للحياة، تعادل تلك المستويات التي كانت للحضارة الإغريقية والرومانية، إن لم تكن تتفوق عليها. بينما كان المسلمون كذلك، كان الأوربيون يعيشون في مباءة التخلف، وسجن الإقطاع.. وقد اصطلح بحق على تسمية هذه القرون من التاريخ الأوربي بالعصور المظلمة.

لقد أيقظت العلوم والتكنولوجيا العربية، أوروبا من العصور المظلمة.

إن الابتكارات التكنولوجية الكبرى التي حدثت بين عامي ٥٠٠-١٥٠٠ م ليس بينها إلا القليل الذي لا ينبئ عن آثار من الحضارة الإسلامية»<sup>(١)</sup>.

(١) ستانوود كب: المسلمون في تاريخ الحضارة ص ٤٩-١٠٩.

## المقارنة الزمنية

ويُقصد بالمقارنة الزمنية إثبات القرون الوسطى الأوربية  
الميلادية وإثبات ما يقابلها من القرون العربية الإسلامية  
الهجرية، وذلك من خلال الجدول الزمني الآتي:

أكثر القرون الإسلامية تنويراً ونهضة وتقدماً هـ	أكثر القرون الوسطى الأوربية تخلفاً وظلاماً م
١- القرن الأول ( النبوة والخلافة الراشدة ومعظم العهد (الأموي): خطاب العقل. وتصحيح الاعتقاد. وتمجيد العلم. وتكريم الإنسان.	١- القرن السابع (ظلام)
٢- القرن الثاني (جزء من الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية): استمرار حركة التنوير المعرفي الشامل.	٢- القرن الثامن (ظلام)
٣- القرن الثالث: الدولة العباسية (ازدهار العلوم النقلية والعقلية والتجريبية)	٣- القرن التاسع (ظلام)
٤- القرن الرابع: الدولة العباسية (استمرار النهضة والازدهار)	٤- القرن العاشر (ظلام)

<p>٥- القرن الخامس والسادس، مواجهة العالم الإسلامي لهذه الحروب، واتصال الغرب بنهضة العالم الإسلامي واستفادته منها.</p> <p>٦- على الرغم من تدهور الدولة العباسية، فإن نهضة التنوير العلمي والفكري ظلت مستمرة، ففي هذه الحقبة مثلاً: تكثف الطرح العلمي الفكري بأن الأرض كروية، على حين كان الطرف الآخر يُعدُّ ذلك هرطقة وكفراً.</p>	<p>٥- القرن الحادي عشر والثاني عشر (ظلمات ووحشية الحروب التي تسترت بالصليب)</p> <p>٦- القرن الثالث عشر (دخول أوروبا في حقبة جديدة من الظلام من الناحيتين العلمية والفكرية) وذلك بإصدار البابا جريجوري أمراً عام ١٢٢٣ بإقامة محاكم التفتيش.</p>
---	--

### دلالات المفهوم الحضاري (التصحيحي)

- إن للمفهوم الحضاري التصحيحي الذي ابتدره سلمان وطرحه  
بوضوح شديد، فصحح به مصطلحاً خاطئاً، بل أسطورة  
شائعة: أسطورة إسقاط مقولة ( القرون الوسطى المظلمة )  
على تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

إن لهذا المفهوم دلالات ومضامين متعددة متنوعة، يمكن  
إجمالها فيما يأتي:

١- إن وصف القرون أو العصور الوسطى المظلمة لا ينطبق على التاريخ العربي الإسلامي، فالوصف يصور حالة من التخلف العلمي والفكري والسياسي والاجتماعي العام هناك، على حين أن العالم الإسلامي كان على النقيض من ذلك، في المدى الزمني نفسه.

٢- لذلك، فإن من الموضوعية والأمانة العلمية أن توصف القرون الإسلامية - المقابلة للعصور الوسطى المظلمة الأوروبية - بـ (القرون الأولى لحركة التنوير العالمية).

٣- في العهد العباسي برز جمهرة من العلماء مثل: الرازي.. والخوارزمي.. وابن الهيثم.. وبينما كان هؤلاء موضع حفاوة وتشجيع من قبل الخلفاء والأمراء والأثرياء في الدولة المسلمة، كان العلماء في أوروبا - على ندرتهم الشديدة - يضطهدون ويطاردون ويحرقون أو يسجنون حتى يستنفد السجن طاقتهم الإبداعية كما حدث - مثلاً - لروجرز بيكون.

٤- تقتضي الدقة أن يقال:

أ - إن أوروبا لم تخلُ من ومضات تشع - على استحياء - في ظلام مطبق عام. بيد أن السياق العام للأوضاع هناك كان متخلفاً في التفكير وفي التعامل مع الكون والحياة والإنسان والدين.

ب- إن العالم الإسلامي نفسه لم يخلُ من نقائص وسلبيات وجمود، بيد أن سياقه الحضاري العام الغالب كان مستنيراً. ولم يشهد - مثلاً - محاكم تفتيش أرعبت أوروبا قروناً متلاحقة، وجعلت الناس يخافون من أنفسهم.

٥- مهما يكن الرأي في تحديد بداية النهضة الحديثة في أوروبا فإن ثمة حقائق ينبغي تسجيلها وهضمها، منها:

أ- أن الحروب الصليبية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين كانت (نافذة)، أطلت منها أوروبا على ما عند العرب والمسلمين من علوم ومعارف وأسباب تقدم ونهوض. ولقد أشار إلى ذلك أكثر من مؤرخ، وأصلوا إشاراتهم بأنه كان هناك إحساس أوروبي قوي بضرورة التقدم والنهضة.

ب- على الرغم من محاولات النهوض والتحرر من الإرث الثقيل المظلم، فإن سحباً من الظلام الشديد ظلت تلف مناطق أوروبية حيث ظلت محاكم التفتيش تعمل حتى عام ١٨٣٤ م.

ولا يتم تمام هذا الفصل حتى نقول: إن سلمان بن عبدالعزيز وهو ينقض - بعزم وحزم وصرامة وصرامة - مقولة (القرون

الوسطى المظلمة من حيث إسقاطها على تاريخ الحضارة العربية الإسلامية لم يكن الرجل وهو يفعل ذلك يبوح (بـخاطرة) عارضة، لاحت ثم غابت.

ولم يكن يعبر عن (فكرة) طارئة: استقرت في الذهن لحظة ثم غابت في زحمة الأحداث والحياة.

وإنما كان نقضه البصير لتلك المقولة - المُسْقَطَة على التاريخ العربي الإسلامي - (منهجاً ثابتاً) ذا رؤية مستقرة، واقتناعاً راسخاً، ممتداً في الزمن والوعي والشعور.

مثلاً: منذ سنوات عديدة، وأنا أسمع منه هذا المفهوم وهو يردده في كل مناسبة موالية.. ومن هذه المناسبات: حضوره (المهرجان البوسني الضخم): ممثلاً للمملكة العربية السعودية - حكومة وشعباً - ورائداً للعمل الخيري الإنساني السعودي النزيه الذي قاده من أجل تقدم البوسنة والهرسك، وقد كان ذلك المهرجان احتفاءً جميلاً به.

كانت تلك المناسبة في سبتمبر عام ٢٠٠٠م.. بعد ذلك بسنوات سبع، أي: في يوليو عام ٢٠٠٧ جرى بيننا حوار ابتدره هو بقوله - معلقاً على مواقف متحاملة على الإسلام والمسلمين وعلى تاريخهم وحضارتهم - قال: «هل الكوكب الأرضي يتسع لكل الأديان والأمم، ويضيق - فقط - بدين

الإسلام والمسلمين؟ .. إننا نعجب من هذا التحامل غير المبرر على الإسلام كدين؛ لأننا نعلم أن الإسلام دين سماحة وتعارف وتفاهم واحترام للتعدديات المختلفة كما نعلم أن الإسلام يحرص على إزالة الأسلاك الشائكة بين الثقافات والحضارات. وقد جاء بهذه القيم في وقت كان فيه العالم غارقاً في الظلام، أو في ( القرون الوسطى المظلمة ) بالنسبة لأوروبا، وهي القرون التي كان يقابلها في الوقت نفسه: نهضة التنوير العقلي والعلمي والمعرفي والفكري والثقافي في المجالات كافة في الأمة العربية الإسلامية، كما شهد بذلك علماء ومفكرون غربيون يصعب إحصاء أسمائهم ومؤلفاتهم الآن.

نعم.. هو (منهج ثابت) لدى سلمان: منهج التفكير العميق في المفردات والمصطلحات وغربلتها ابتغاء إقرار السليم منها، ونفي الخاطئ المعوج المضلل.. ومن هذه المصطلحات التي رفضها بحزم وتبصر: مصطلح ( القرون الوسطى المظلمة )، لا من حيث نشأته في بيئته واستعماله هناك، وإنما من حيث إسقاطه - بغير علم ولا دقة - على تاريخ العرب والمسلمين.